

الدرس : 10 - سورة يونس - تفسير الآيتين 39 - 41 : تطبيق كتاب الله ومعرفة تأويله - التفكير أعظم عبادة على الإطلاق .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-11-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

سعادة الإنسان منوطة بتطبيق كتاب الله :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ وصلنا في الدرس الماضي في سورة يونس إلى قوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبُكُلَّ ذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

الحقيقة أن في الإنسان صفاتٍ عديدة بعضها مقبول ، وبعضها جيد ، وبعضها مرذول ، من صفات الإنسان العقلية المرذولة أن يكذب قبل أن يحيط بالشيء علماً ، أي أن يحكم على الشيء قبل أن يعرفه ، كيف أن هناك صفات خلقية مذمومة ، كيف أن هناك صفات خلقية مذمومة هناك صفات عقلية مذمومة ، من الصفات العقلية المذمومة أن تكذب بالشيء قبل أن تعرفه ، أن تستخف به دون أن تحيط به علماً ، أن تردد وأنت جاهل به ، هذه صفة عقلية ذميمة في الإنسان ، من صفات السُّدُّج ، من صفات عامة الناس ، من صفات الدهماء ، من صفات المتخلفين عقلياً ، أما أن تكذب بالشيء قبل أن تعرفه ، قبل أن تحيط به علماً ، قبل أن تدرك حقيقته ، قبل أن ترى أبعاده كيف تكذب به ؟ ربنا سبحانه وتعالى ذم هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن قبل أن يعلموه ، كم من إنسان في هذا العصر لا يعرف حقيقة هذا الكتاب ؟! يقول : هذا الكتاب ليس لهذا العصر ، فيه غيبيات ، لو عرف أن سعادته وسعادة مجتمعه والإنسانية جماعة منوطة بتطبيقه لاختفى الأمر .

ضرورة معرفة الحقيقة عن طريق البصر أو السمع :

ربنا سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ .. في هذه الآية شيئاً ، الشيء الأول : الإنسان أحياناً يبادر مبادرة ذاتية لمعرفة الحقيقة ، وأحياناً تُنقل إليه الحقيقة ، إذا كان قد بادرها أو نقلت إليه ، وعقلها ، وطبقها فهو في خير ، أي سواءً عليك أفكرت تفكيراً ذاتياً بربك ، وبآياته الكونية ، واستبسطت من هذه الآيات أن لك رباً عظيماً ، خالقاً قدراً حكيناً ، سوف يعيid الخلق مرةً ثانية ليجزي كل إنسان بما عمل ، سواءً عليك أبادرت أنت لمعرفة الحقيقة أم نقلت إليها الحقيقة لابد من أن تعرف الحقيقة ، إما عن الطريق النظر ، وإما عن طريق السمع ، عن طريق النظر :

قُلِ الْأَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيَاثُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101)

سورة يونس

إنسان لم ينظر ، إذا جاءه الحق عن طريق إنسان وأسمعه إياه صار هذا الحق حجةً عليه .

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

سورة الأنفال

أي إما أن تفكّر أنت ، إما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، وأما الكفار فقد وصفهم ربنا عزّ وجلّ فقال :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَذْنَرَهُمْ أَمْ لَمْ تُذْنِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)

سورة البقرة

لأن منفذني القلب بما السمع والبصر .. ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوةٌ ﴾ أي منفذ القلب عليه غشاوة ، وهو حب الدنيا ، صار عندنا منفذان للحق : إما أن تنظر ، وإما أن تسمع ، أما هؤلاء الذين كفروا بهذا الكتاب ، كذبوا به ، ولم ينظروا في آياته دلالاتها ، ولم ينظروا في نظامه الاجتماعي ونظامه الاقتصادي ، ولم ينظروا في تشريعاته ، ولم ينظروا في دلالاته وآياته ، ولم ينظروا في مضامينه ، ولا في إعجاز صياغته وبيانه ، ولا في إعجازه الرياضي والحسابي والدلالي ، لم ينظر في القرآن ، وحينما نقل إليهم تفسيره الصحيح أيضاً لم ينظر في هذا التفسير .

اختلاف التأويل عن التفسير :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ .. أما التأويل فإنه يختلف عن التفسير ، أحياناً تقول : الصّبا الرياح الشرقية هذا تفسير ، ولكن التأويل إذا ورد النص فيما يعارض الواقع فعليك أن تؤول النص بما لا يخالف الواقع ، أي إذا قلت : في بيتنا بحر ، البحر لا يكون في البيت ، إذاً : في بيتنا رجل علمه كالبحر ، فانتقلنا من الحقيقة إلى المجاز ، التأويل ربنا عزّ وجل قال :

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

سورة الفتح

الله عزّ وجل منزه عن التبعيض ، ليس له شيء بعض منه ، منه ، والتجزء ، لكن يد الله بمعنى قوته فوق أيديهم ، فالتأويل حينما يتعارض النص مع الواقع عندئذٍ تحاول أن توفق بينه وبين الواقع ، هذا هو التأويل ، ربنا عزّ وجل قال :

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ فَإِنَّمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغَمٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ أَمَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

سورة آل عمران

هذه المتشابهات لا يعلم تأويلاً لها إلا الله والراسخون في العلم ، لذلك :
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنُهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا (59)

سورة الفرقان

ربنا عزّ وجل قال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ التأويل هنا أي توضيح الآيات ، تفسيرها ، توفيقها مع الكمال الإلهي ، لو فرضنا أن شخصاً قال : الله ضار ، طبعاً ، يضر لينفع ، بيته ليجزي ، يأخذ ليعطي ، أنت أولت هذا الاسم بشكلٍ يليق بكمال الله عزّ وجل ، من أسمائه الضار ، إذا اكتفيت وقلت : الله يضر العباد ، فهذا فهمٌ قاصر ، الله سبحانه وتعالى يضرُّهم لينفعهم ، هذا هو التأويل ، أولت الضرر لصالح العباد وبشكلٍ يتناسب مع كمال الله عزّ وجل ، إذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لَوْ لَمْ ثُذِّنُوْا لَذَّهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ فَيَسْتَغْفِرُوْنَ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ .

صحيح مسلم

هذا الذنب بمعنى الإحساس بالذنب ، أي إن لم تحسوا على ذنبكم لم يكن فيكم خيراً يرجى ، ((... لَذَّهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ)) أي أنهم إذا خالفوا أدق مخالفة ، إذا وقعوا في أصغر ذنب ، اشتعلت نفوسهم فرقاً من الله عزّ وجل ، هؤلاء ناجون ، فحينما يردد

النص بشكل لا يتناسب مع قائله تُؤَوِّلُه ، هذا مذهب بعض العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل ، فهنا الآية : ﴿ بَنْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي الإنسان ليس له حق أن يكذب بأية ، يأخذ بأية مكانتها قبل أن يعرف تأويلها .. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ هنا الوقف عند كلمة : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ :

شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمٍ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)
سورة آل عمران

من علامات العلماء الصادقين أنهم يشهدون للناس عدالة الله عز وجل ﴿ شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمٍ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ من خلال هذا الشرح السريع تبين أن معنى التأويل توجيه النص يليق بقائله .. صحابي جليل يقول : أنا أصلبي بغير وضوء ، وأحب الفتنة ، وأكره اليقين ، وأفر من رحمة الله ، ولني في الأرض ما ليس لله في السماء ، قال : ما هذا يا فلان ؟! ، فدخل سيدنا علي كرم الله وجهه على أمير المؤمنين عمر قال له : يقول فلان : كذا وكذا !! ، قال له إنه يقول : إنه يصلني على النبي بغير وضوء ، ويحب الفتنة : **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** (15)

سورة التغابن

يكره اليقين ، واليقين هو الموت ..

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

سورة الحجر

ويفر من رحمة الله ، أي من المطر ، وله في الأرض زوجة وولد ما ليس لله في السماء ، هذا التأويل أي أنك أولت الكلام بما يليق بصاحبه ، الكلام لا يُحمل على نَصِّهِ يحمل على قائله . إذا قال الله سبحانه وتعالى :

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمِنًا وَهُمْ لَا يُفَتَّنُونَ (2)

سورة العنكبوت

الفتنة معناها دقيق جداً ، ويليق بكمال الله عز وجل ، الفتنة هي الامتحان وإظهار

ما في النفس ، إذا قال سيدنا موسى لرب العزة :

وَاحْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَحَدَنَّهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّاهُ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَةٌ تُضِلُّ بِهَا مَنْ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ شَاءَ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَيْرُ الْغَافِرِينَ (155)

سورة الأعراف

معنى يجب أن تُؤول هذه الآية ، بمعنى هذا امتحانك وبلاوك ، لتكشف الناس ، لقرزهم ، لتميز الخبيث من الطيب ، هذا هو معنى الآية .
وإذا قال الله :

أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

سورة فاطر

هذه تردد بمعنى أنه من يشاء من العباد أن يهتدي فالله عز وجل يهديه ، الإنسان مخير ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، لذلك : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

يُصلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا (71)

سورة الأحزاب

هذه آية محكمة لا تحتاج إلى تفسير ، ولا إلى تأويل ، ولا إلى كتاب تفسير ، أبداً واضحة كالشمس ، معظم آيات القرآن الكريم من هذا النوع ، إن الله لا يحب الكاذبين .

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

سورة النساء

هذه آيات محكمات . مثلاً :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْيِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)

سورة الصاف

هذه آية محكمة ليس فيها شيء ، لكن :
وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِي لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

سورة السجدة

هذه آية متشابهة .. ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغُ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ الله لم يشا لي الهدى ، هذه الآية تفضل ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغُ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلَهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَيْنَا ﴾ فالإنسان إما أن يعرف التأويل أو أن يحضر مجالس التأويل كي يكون على بيته من رب.

التأويل هو أن توجه النص توجيهها يتناسب مع قائله :

البارحة كنت مع شخص قال لي يا أخي :

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحًّا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

سورة التغابن

أي ببدل الحد الأدنى من استطاعتكم ، قلت له : لا ، معناها : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ببدل الحد الأقصى ، هو أولها على الحد الأدنى ، أي على قدر ما تستطيع ، وتأويل هذه الآية على الحد الأقصى ، والدليل الآيات الأخرى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوْنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

سورة آل عمران

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةً أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاکُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَاقْبِلُمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

سورة الحج

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41)

سورة الأحزاب

هذه الآيات كلها تتناقض مع هذا التأويل الذي يطابق هوى نفسه ، إذا التأويل أن توجة النص توجيهها يتاسب مع قائله ، يجب أن تفسر الانتقام باسم من أسماء الله بما يليق مع أسمائه الحسنة .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْخُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سِيْجَرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180)

سورة الأعراف

فالمنقم ، والجبار ، والضار ، والقابض ، هذه كلها أسماء الله حسني ، يجب أن تقولها تأويلاً يتاسب مع عظمة الله عز وجل ، ومع كمالاته اللامحدودة .

التأويل هو تحقق وعد الله ووعده في الحياة :

هؤلاء تسرعوا ، كذبوا بهذا القرآن قبل أن يتأملوا في آياته ، في مضامينه ، ما ينطوي عليه من حقيقة ، وما ينطوي عليه من منهج رشيد .
إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)

سورة الإسراء

كذبوا .. قال لي صديق كان يعمل بعمل إداري وزع بلاغاً على من دونه .. كان مدير ثانوية .. البلاغ فارغ ، ورقة بيضاء ، وضع فوقها ورقة كتب عليها : إلى السادة المدرسين يرجى التوقيع على البلاغ المرفق ؟ قال لي : فوجئت بأن معظمهم وقع ، وأما البلاغ المرفق ورقة بيضاء ، أي وقع على الورقة ولم يقرأ مضمونها ، هذه صفة عقلية ذميمة ، أن تكتب بالشيء قبل أن تحيط به علمًا ، أو أن تصدقه قبل تحيط به علمًا ، هذه صفة ذميمة ، والأذم منها أن يأتيك التأويل الصحيح وبعدها تثير ظهرك لهذا القرآن :

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(30)

سورة الفرقان

اتخذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . إذا : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي لم يحيطوا علمًا به ، وقبل أن يستمعوا إلى التأويل الصحيح كذبوا به . وهنالك تفسير آخر لهذه الآية لا يقل عن الأول ، تأويل القرآن الكريم وقوع وعده ووعيده ، أي إذا الله عز وجل وعد المريبي بحربٍ من الله ورسوله ، حينما تدمر أمواله وتصادر هذا تأويل هذه الآية :
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْثِمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَنْظِلُمُونَ وَلَا تُنْظَلُمُونَ
(279)

سورة البقرة

هذه آية ، متى يأتي تأويلها ؟ إذا صودر المال كله ، أو احترق ، أو تلف ، أو دمر ، تدمير هذا المال تأويل الآية ، إذا : هم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، لكن تأويله لم يأتي بعد ، هذه (لما) ، عندنا : لم ، لما ، ولام الأمر ، ولا الناهية ، هذه الجوازم ، تختص لما بوضع دقيق مثلاً إذا قلت : لم يحضر المدرس ، هذه (لم) تنفي الفعل المضارع وتجعله ماضياً ، يسمونها : حرف جزمٍ ونفي وقلب ، نفت حدوث الفعل ، وجزمه ، وقلبت معناه من المضارع إلى الماضي ، لم يحضر المدرس .

أما إذا قلت : لن يحضر المدرس ، هذه (لن) تنفي المستقبل مع أنها حرف ناصب ، تنفي المستقبل ، إذا قلت : لما يحضر المدرس ، أي حتى هذه الساعة لم يحضر ، لكن احتمال حضوره قائم ، الساعة التاسعة درسه ، صارت التاسعة وخمس دقائق ، التاسعة وسبعين دقيقة ، لا تقل : لم يحضر ، هذا غلط باللغة ، وإذا قلت : لن يحضر أيضاً غلط ، لأنك علمت الغريب أنت بهذه الطريقة ، لو أنه خَرَّ وقال : لن أحضر هذه الساعة ، تكتب للطلاب : لن يحضر المدرس في هذه الساعة ، لن للمستقبل ، وإذا كان في الماضي لم يحضر تقول : لم يحضر ، بعد ما مضت الساعة بكمالها ، والساعة انشطبت ، تكتب : لم يحضر المدرس ، يوقع الموجه ، الساعة انتهت ، أما إذا كان تأخره لمدة خمس دقائق فلا تقل : لم يحضر ، ولا تقل :

لن يحضر ، مَاذا تقول ؟ لما يحضر ، أي حتى الآن لم يحضر مع أن احتمال حضوره لا يزال قائماً .

شخص مرابٍ قال لك : لم يصبني شيء ، هذه أموالي تزداد ، وآخذ فوائدها بالمئة ثمانية عشر ، أودعت مئة ألف دولار في بنك أجنبى فصار المبلغ الآن مئة ألف وثمانية عشر ألف دولار ، وما اعتناني ضرر ولا خطر ، وأنا مرتاح من كل هموم الحياة ، مبلغ ضخم يأتيني كل شهر ، أصرفه ، ولست مسؤولاً لا أريد فاتورة ، ولا أريد بياناً ، ولا أريد شيئاً ، نقول له : ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ، تأويل هذه الآية ، آية الربا ، لما يأتِ بعد لكنه سوف يأتي .

شخص مثلاً تجاوز حدوده في علاقته مع النساء ، قال لك : مَاذا جرى ؟ نقول له : هذه الآية لـمَا يأتِ تأويلها ، إذا وجدت رجلاً في بيتك عنده يأتي تأويل الآية : **مَنْ يَرِنَ يُرِنْ بِهِ وَلَوْ بِجَدَارِهِ إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيباً فَافْهِمْ**

* * *

التأويل صار بمعنى آخر ، أي تحقق وعد الله ووعيده .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمْتَهَا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)

سورة النور

لو أن الله استخلفهم في الأرض لكان استخلافه لهم تأويلاً لهذه الآية .

وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)

سورة طه

إذا رأيت إنساناً ضاقت به الدنيا ، قال لك : الحياة لا تطاق ، هموم تكاد تمزق قلبي كما قال الشاعر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

* * *

كل نبل مصيبة .

فكنت إذا أصابتني سهام تكسّرت النصال على النصال

* * *

أي لم يعد هناك مكان ، إذا قال لك إنسان : الحياة شاقة ، أهون شيء فيها الانتحار ، قل هذا تأويل قوله تعالى : **﴿وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)﴾** وإذا التقى بمؤمن ، وقال لك : ليس في الأرض من هو أسعد مني ، الحمد لله ، غارق في نعم الله ، هذه الحالة تأويل قوله تعالى :

**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَخْرُجُوا وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** (30)

سورة فصلت

ما هو التأويل إذا ؟ تحقق وعد الله ووعيده في الحياة ، حيثما تحقق وعد الله ووعيده في الحياة فهذا تأويل الآية ، إن رأيت صاحب مالٍ عريض صودرت أمواله كلها ، ورأيته على وشك الانهيار ، فهذا تأويل قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا التأويل .

بطولة الإنسان أن يعرف ما سيكون قبل أن يكون :

اقرأ القرآن الكريم حيثما وردت آية فيها وعد أو وعيد ، حيثما وردت آية تأخذ شكل قانون ، أي علاقة ثابتة بين متحولين ، ثم رأيتها تقع في الحياة ، فهذا هو التأويل ، فالبطولة لا أن تصدق بالشيء بعد أن يحدث ، مثلاً : بناء خطر ، براعة المهندس أن يكشف لك الخطورة قبل أن يقع البناء ، فإذا وقع هل لك أن تكذب وقوعه ؟ انتهى الأمر ، من هنا يستطيع أن يكذب أن بناء وقع ؟ لكن العلم يفيد قبل أن يقع البناء تخلي البيت من السكان ، الحقيقة إذا وقع التأويل لم يعد هناك ذكاء ، انتهى الأمر . فرعون نفسه لما أدركه الغرق قال : وَجَاؤْنَا بَنَى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرْقُ قَالَ أَمْتُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَّا الَّذِي أَمْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

سورة يونس

قال له :

أَلَا إِنَّ وَقْدَ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

سورة يونس

هذا الإيمان جاء بعد فوات الأولان ، جاء في وقت غير مناسب ، هذا الإيمان لا يجدي ، أي :

وَلَيَسْتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي ثُبَّثُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوِثُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)

سورة النساء

هذه ليست توبة ، التوبة أن تكون وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تختلف الفقر ، وتأمل الغنى ، أن تدفع من مالك الحلال لله عز وجل ، هذا الوقت المناسب .

مثلاً عندما أتتني بشيء بحسب فهمي لكتاب الله ، البطولة الآن ، لكن بعد أن يأتي الموت ، هذا اليقين ..

لَقَدْ كُنْتَ فِي غُلَمٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

سورة ق

انتهى الأمر ، فإذا جاء تأويل الآيات انتهى الأمر ، إن آمنت أو لم تؤمن فأنت مرغم بالإيمان ، تأويل القرآن بمعنى وقوع وعده ووعيده .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكْرٍ أَوْ أُثْرٍ أَوْ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنْحِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

سورة النحل

إذا صادفت أخرين ، أحدهما مستقيم والآخر غير مستقيم ، الأول ظاهر النفس والآخر غير ظاهر ، الأول كسبه حلال ، والآخر كسبه حرام ، وزرتهم بالعيد في يوم واحد ، وسمعت من الثاني شكوى ليس لها حدود ، ضيق ، وتبّرُّ ، قال لك : الحياة تعيسة ، وسمعت من الأول حمداً من دون حدود هاتان الحالتان تأويل قوله تعالى :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21)

سورة الجاثية

إذا فهم معنى التأويل ، وهو تحقق وعد الله ووعيده ، والتکذيب بعد وقوع التأويل مستحيل ، هذا المهندس بما أوتي من فهمٍ دقيق ، وإدراكٍ عميق ، كشف أن في البناء خطراً ، وأنذر أصحابه بوقوع البناء ، انتهت مهمته ، هم إن كذبوا وقع البناء فوق رؤوسهم وقتلهم جميعاً ، وإن صدقوا نجوا ، لكن إذا كذبوا وهم نائمون رأوا فجأة البناء ينهاز عليهم ، خلال ثوانٍ يصدقون قوله ، لكن متى صدقوا؟ بعد فوات الأوان ، فالبطولة أن تصدق قبل أن يأتي التأويل ، أما بعد أن يأتي التأويل فلن تجد مكذباً إطلاقاً ، لم يبق على وجه الأرض مكذب ، البطولة إذا رأيت ما يشبه القنبلة أن تعرف أن فيها فتيل أم ليس فيها فتيل ، لكن إذا جربتها بنفسك لا سمح الله ووقع انفجار ، فإنك خلال ثانية تعرف ، لكن متى؟ بعد أن أطاحت ب أصحابها ، عرف أنها قنبلة أن أطاحت ب أصحابها ، هل استقاد من هذه المعرفة؟ لا ، أما البطولة أن تعرفها قبل أن تتفجر ، هذا التأويل ، أن تعرف ما سيكون قبل أن يكون ، أن تعرف أن هناك يوماً آخر ، فيه ساعة اللقاء مع الله عز وجل ، فيه حساب دقيق ، عن عبد الله بن مسعود : عن النبي صلى الله عليه وسلم :

لَا تزولُ قَدْمَا عَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسَأَّلَ عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ .

أخرجه الترمذى

هل أصبحنا بمستوى معلوماتنا ، خلال كذا درس ، خلال سنة من الدروس صار لدينا معلومات دقيقة جداً فهل نحن في مستواها ؟ وهل كل شيء عرفناه طبقناه ؟ ((عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه)) .

علاقة الظلم بالتكذيب :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ كلام رب العالمين ، ما علاقة الظلم بالتكذيب ؟ قال لك : حصل برakan ثار في كولومبيا ، قتل خمسة وثلاثين ألف نسمة ، قال آخر : لا ، خمسة وعشرون ، لا ، خمسة وثلاثون ، واحد كذب الثاني وإذا كذبه ماذا يحصل ؟ هناكأشياء إذا كذبتها لا يحصل شيء .

قال أحدهم : ليس من المعقول أن يكونوا قد صعدوا إلى القمر ، حجمه صغير هل يتسع لمركبة فضائية ؟ كذب بارتيداد الفضاء الخارجي : ﴿ كَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، ما علاقة التكذيب بالظلم ؟ إن كل مكذب بمنهج الله سبحانه وتعالى لابد من أن يقع في الظلم ، فإذا كذبت بغض البصر بهذا التشريع ، وأطلقت البصر هذا إطلاق البصر لابد من أن يبذر في النفس الهوى ، فإذا بذر إطلاق البصر في النفس الشهوة لابد من أن تعتدي على أعراض الآخرين ، التكذيب بغض البصر لابد من أن ينتهي بك إلى العداوة على أعراض الناس ، التكذيب بأن الربا محرم ، لابد من أن يحملك على أكل الربا ، وأكل الربا ظلم ، الفكرة دقيقة ، علاقة التكذيب بالظلم ، إذا كذبت بالمنهج الصحيح ، لو أن إنساناً كذب أن يكون الوقود السائل وقوداً للسيارة ، ووضع ماء مكانه ، هل تسير ؟ لا تسير ، هذا تكذيب له مضاعفات ، وضع الماء بقي في مكانه وافقاً ، لما كذب أن الوقود بنزين ، فوضع مكان البنزين ماء ، معنى ذلك أنه بقي في أرضه جاماً ، فليس كل تكذيب خطراً ، إذا لم تصدق أنه قضى خمسة وثلاثون ألفاً ، بل قلت : خمسة وعشرون ألفاً ، فالأمر سبان ، هذا تكذيب غير خطير ، لكن إذا كذبت بمنهج الله عزّ جل هذا تكذيب خطير ، تكذيب مدمر ، ينتهي بصاحب إلى الظلم ، والظلم ظلمات يوم القيمة ، هذه دقة الرابط في القرآن .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾.. كذب فانظر ، هذه الغاء للترتيب على التعقيب ، أي لابد من أن تأتي النتيجة عقب السبب ، كذب بالأيات ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أشخاص

كثيرون يخلفون يميناً غموساً في المحاكم ، لا تقلهم قدماهم مترين إلا ويقعوا في حالاتٍ مرضيةٍ .. وبيلة ..

علاقة الفساد بعدم الإيمان :

﴿ فَإِنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ - هذا القرآن الإنسان مخير - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ ما علاقة الفساد هنا بعدم الإيمان؟ أي إن لم تؤمن بهذا الكتاب لابد من أن تكون مفسداً في الأرض ، أبداً ، تفسد العلاقات بقولك ، بنظراتك ، بتعاملك مع الناس ، ما دمت لا تؤمن بهذا القرآن فلابد من أن تكون مفسداً ، إما أن تكون مصلحاً ، وإما أن تكون مفسداً ، لأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات يبين لنا ما ينتج عن الإيمان به ، وما ينتج عن عدم الإيمان به ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ إن لم تؤمن بهذا الشرع الحنيف ، بهذا المنهج القوي ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ فلابد من أن تكون مع المفسدين .

كل إنسان محاسب على عمله :

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ ... عندك في البيت كيلو قلت للناس : ذهب ، قالوا لك : كذب ، هذا تنك ، وهو ذهب فعلاً ، من الخاسر ؟ هم ، من الرابح ؟ أنت ، معك كيلو قلت للناس : ذهب ، هو تنك ، فصدقك الناس ، كلهم صدقوك ، إذاً من الخسران ؟ أنت ، علاقتك مع نفسك ، كل محاولات الدجل ، والاستعراض ، وعرض العضلات أشياء سخيفة ليس لها وزن عند الله عز وجل ، لك حقيقة عند الله ، لا تجرحها إساءة ظن الناس بك ، ولا يرفعها ثناء الناس عليك .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشَالُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

سورة البقرة

علاقتك مع نفسك أي أرج نفسك من أقوال الناس ، لا تستجد ثناء الناس ، طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس ، طوبى من وسعه بيته وبكي على خطيبته : عن عقبة بن عامر ، قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسفك بيتك ، وابك على خطيبتك .

سنن الترمذى خلاصة حكم المحدث : حسن

هذه النصيحة الإلهية ..

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مِنْ حُسْنِ

إِسْلَامٍ الْمَرْءُ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ

الترمذى ، حسن

هذا المثل لا تنسوه أبداً ، معك كيلو من المعدن ، الناس جميعاً ظنوه تتك ، وهو ذهب ، معك كيلو تتك ، أوهمت الناس أنه ذهب ، وصدقوك ، وهو تتك ، فأنت الخاسر ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُم﴾ .. هذا العمل ملك ، أي الإنسان ماذا يملك ؟ هل يملك البيت ؟ لا يملكه ، لابد من أن يخرج منه بشكّل أفقى ، أبداً ، إذا كان للإنسان بيت يقول : أين سوف يغسلونني ؟ في أي غرفة ؟ في الحمام ؟ في المطبخ ؟ في الممشى ؟ لابد من أن يخرج منه ، دخل إليه ، ثم يخرج منه عشر سنوات مثلاً ، هناك خروج ليس بعده عودة ، فالبيت ليس لك ، السيارة ليست لك ، تؤخذ مفاتيحها ، ويركبها أناس آخرون ، عندك خزانة فيها مقتنيات ثمينة ، ليست لك ، وعندك أرض ارتفع سعرها مئة ضعف ، ليست لك ، ليس لك إلا عملك ..

قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفدبني تميم فقال لي : اغتصل بماء وسدر ، ففعلت ثم عدت إليه فقلت : يا رسول الله عظنا عظة ننتفع بها ؟ فقال : يا قيس إن مع العز ذلاً ، وإن مع الحياة موتاً ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حسيباً ، وعلى كل شيء رقيباً ، وإن لكل حسنة ثواباً ، وإن لكل سيئة عقاباً ، ولكل أجل كتاب ، وإنه لا بد لك يا قيس من قرين ، يدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وهو ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيناً أسلمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تبعث إلا معه ، ولا تسأل إلا عنه ، فلا يجعله إلا صالحاً فإنه إن كان صالحاً لم تأس إلا به ، وإن كان فاحشاً لم تستوحش إلا منه ألا وهو فعلك . لا يوجد له سند مطلقاً وقد أورده كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدى، وكتاب أبي جد العلوم لصديق القنوجى

والعصر (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَاصَوْا بِالصَّابِرِ (3)

سورة العصر

قُلْ هُنَّ هُنَّ تُنَيِّكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ صَلَّى سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)

سورة الكهف

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ لا تبال ، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به . ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيُّونَ مِمَّا أَعْمَلْنَا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ..

وَلَا تَنْزِرْ وَازِرَةً وَنْزِرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُتْقَلَّةً إِلَى حِمْلَهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

(18)

سورة فاطر

كل إنسان محاسب على عمله ، لن تحاسبوا على عملي ، ولن أحاسب على أعمالكم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَئْتُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْغَمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ طبعاً هذه الآيات تحتاج إلى شرح تفصيلي إن شاء الله ننتقل إلى شرحها في درس قادم .

* * *

الآيات الكونية كلها تجسيد لأسماء الله الحسنى :

أردت في درس الجمعة أن أجمع بين الآيات القرآنية والآيات الكونية ، الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، وإن الله عز وجل في خلقه كتابين ، القرآن كتاب والكون كتاب ، الآيات الكونية كلها تجسد أسماء الله الحسنى ، ومن أسماء الله الحسنى القوي ، القوي اسم من أسماء الله عز وجل ، أي مما وصل إلى علمي . والإنسان لا يحيط بالعلم الصحيح :
الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

سورة البقرة

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

سورة الإسراء

إن هذه المجرات التي رصدها المراصد الفلكية بعضهم يقول : تزيد عن مليون مليون مجرة ، وبعضهم يقول : تزيد عن مئتين وخمسين ألف مجرة ، على كل الرقم كبير جداً .
قال : هذه النجوم من هذه المجرات الشهيرة درب التبان التي نحن فيها ، والمجموعة الشمسية ما هي إلا نجم صغير في هذا الدرب الكبير . على كل الذي يعنيها قال : إن هذه النجوم تتولد فيها تفاعلات نوية كبيرة جداً ، هذه التفاعلات النووية في باطن النجوم تشكل قوة ضاغطة نحو الخارج ، وبحسب قانون الجاذبية كل ما على النجوم يشكل قوة منسوبة إلى الداخل ، فالتفاعل النووي يشكل قوة دفع نحو الخارج ، وجذب نيوتن يشكل قوة دفع نحو الداخل

، هاتان القوتان متوازنتان ، فإذا كانت هاتان القوتان متوازنتين فالنجم في تألقه وشبابه كشمسنا اليوم ، لكن هذا النجم الذي تحدث فيه هذه التفاعلات يفقد من كتلته ولكن الشمس مثلاً لهذا الفقد في كل ثانية أربعة ملايين طن من كتلتها .

الشمس في كل ثانية تفقد أربعة ملايين طن من كتلتها ، قال : هذا النجم ماذا يحدث له إذا خبا التفاعل النووي في داخله ؟ تصبح قوة الانكمash أشد من قوة الدفع فينكشم على نفسه ، ينكشم هذا النجم حتى يصبح نجماً أصغر من ذي قبل ، وإذا صغرت كتلته خرج عن مداره ، وانفلت من نظام الجاذبية ، هذا النجم العلماء في عام سبعة وستين كشفوا من هذا النجم ما يزيد عن مئتي نجم ، سمي هذا النجم : القزم الأبيض ، أي التفاعل النووي في باطنه خفت حدته ، قوة الانسحاب نحو الداخل فاقت قوى الدفع نحو الخارج ، قلت كتلته ، ازدادت كثافته ، خرج من مداره .

النقطة التي أثارت انتباхи أن هذا النجم حينما زادت كثافته ، معنى الكثافة أي نسبة الوزن للحجم ، احمل كيلو حديد واحمل إسفنجية تجد أن هذا وزنه شديد ، الإسفنجية حجمها أكبر أما الحديد فأوزن ، نقول : كثافة الحديد أشد .

قال : هذا النجم تزيد كثافته مليون مرة عن كثافة الماء ، مليون مرة ، ماذا يعني ذلك ؟ قال : لو أخذنا من تراب هذا النجم ما ملأتنا به علبة ثقاب لكان وزن هذه العلبة خمسة وعشرين طناً ، لو أخذنا من تراب هذا النجم المنكمش الذي سمي قزماً أبيض ، لو أخذنا منه ما يملأ علبة ثقاب لكان وزن هذه العلبة خمسة وعشرين طناً .

تصور خمسة وعشرين طناً بحجم علبة كبريت ، حصل فيه انكمash داخلي ، هذا أحد أنواع الانكمashات .

النوع الثاني إذا كان هذا النجم بحجم الشمس هكذا تغدو كثافته ، مليون ضعف عن كثافة الماء ، أما إذا كان بثلاثة أحجام الشمس قوة الدفع نحو الداخل تزيد جداً وتقوى على قوة تماسك الذرة ، فالإلكترونات تندمج في النيترونات ويصبح هذا النجم نجماً نيترونياً ، ما معنى هذا الكلام ؟ قال : أي تصبح كثافته أكثر من كثافة الماء بألفين وخمسين مليون مرة ، أي علبة كبريت وزنها حوالي ألفين وخمسين مليون طن ، علبة كبريت ، وزن هذه العلبة من تراب هذا النجم ألفان وخمسين مليون طن ، شيء فوق التصور ، قال : فإذا كان النجم أكبر من ثلاثة أمثال الشمس ، وانكمش انكمشاً شديداً ، وخرج بسرعة من مداره أسرع من الضوء ، انطفأ هذا النجم وترك في مكانه فجوة كبيرة هذه هي الثقوب السوداء ، التي كشفوا فيها واحداً الآن في الفضاء الخارجي .

ما هذا الثقب الأسود ؟ قال : إذا دخلته الأرض كلها تصبح بحجم كرة الطاولة - بين بون - الأرض كلها إذا دخلت في هذا الثقب الأسود يصبح حجمها بحجم كرة الطاولة مع

بقاء وزنها ، فتصور أرضاً بكمالها ، القارات بكمالها ، المحيطات ، الجبال ، انقلبت إلى حجم كرة ، قال : هذا النجم الذي كشف حتى الآن اسمه : كوكبة الدجاجة ، ثقب خطير خطير ، لو دخلته الأرض لأصبحت بحجم كرة الطاولة .

الماء آية من آيات الله الدالة على عظمته :

الشيء الذي أريد أن أقوله : الماء ، هذا الماء الذي نشربه لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يضغطوه ما استطاعوا .

لو حضرنا متراً مكعباً من الماء وضعناه بمكبس ، وضعنا فوقه مئة طن ، مئتي طن ، ثلاثة طن لا ينضغط ، لذلك يستعملون الزيوت السائلة في نقل الحركة ، الهيدروليكي ، أي حركة ميليمتر من جهة السائق تنتقل نفسها للمكبح ، السوائل لا تتضغط ، وهذا الماء الذي نشربه ، إذا أراد أن يتمدد بفعل البرودة لا شيء يقف أمامه ، الفولاذ ينصدع ، الصخر الأصم يندفع ، إذا كان هذا الماء لا يمكن ضغطه ، وإذا بردناه وتمدد لا يمكن إيقاف تمده ، بأية قوة على وجه الأرض ، إذا كان الماء بهذه القوة فما هذه القوة الكبيرة في الثقوب الفضائية بحيث إذا دخلتها الأرض بكمالها تصبح كرة الطاولة ؟!

أقرب شاهد لنا ميزان الحرارة ، فيه فجوة فارغة ، لو وضعته في مكان حار ووصل الزئبق إلى حده الأقصى ينكسر الميزان ، خط الزئبق رفيع جداً ومع ذلك يكسر الميزان .

إذا السوائل حينما تتمدد لا شيء يقف أمامها ، ولا شيء يضغطها ، فما بالك بهذه الأرض وما عليها ؟ هذا تقريب قليل لاسم القوي ، ربنا عز وجل قال :

وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(180)

سورة الأعراف

التفكير أعظم عبادة على الإطلاق :

أردت من هذه الفقرة التفكير في آيات الله ، لأن التفكير في آيات الله عبادة ليس مثلها عبادة ، لأنها أقرب طريق إلى الله عز وجل ، لأن الله سبحانه كما قال الإمام علي : لا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، فوق كل شيء ، وليس تحته شيء ، وهو في كل شيء ، ليس شيء في شيء ، وليس كمثله شيء .

الله سبحانه وتعالى لا تعرفه بالحواس ولكن تعرفه بالأيات ، وأياته مثبتة في كل

شيء :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه النظرة المألفة لفن الشمس والقمر ، والطعام والشراب ، لو تعمقت لوجدت أن في كل شيء إعجازاً ، الحياة فيها إعجاز ، طعامك فيه إعجاز ، المطر فيه إعجاز ، هذا كله إذا تأملت فيه تعرفت إلى الله عز وجل :

وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْلِفٌ لِّوَانَهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْغَلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

سورة فاطر

وبقدر تفكيرك بآيات الله بقدر خشيتك منه ، لا عبادة كالتفكير ، الذي أرجوه أن يكون لكل واحد منا بعد صلاة الصبح جلسة يتذكر فيها بأسماء الله الحسنى أو بخلقها أو بآياته أو بجسمه أو بحواسه الخمس أو بطعمه ، بشرابه ، بابنه ، بهذه المخلوقات التي بثها الله في الأرض ، أي إن لم تفكروا في آيات الله فالأمر خطير ، والدليل قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

سورة النحل

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَنْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حِدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

سورة الجاثية

فالإنسان عليه أن يعود نفسه يفكر ، إن شرب كأس ماء يفكر ، أي إذا حرك أصابعه يفكر ، بأطوالها ، بسلامياتها ، بعظامها ، بشرائينها ، بأورتها ، بأعصابها ، بالجلد ، يفكر بأجهزته ، بجهاز الهضم ، بجهاز التنفس ، بالقلب ، بالدماغ ، بالسمع ، بالبصر .

أي يوجد آيات بثها الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى :

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (20)

سورة الذاريات

الإنسان في حياة محدودة فيها مسؤوليات كبيرة :

نحن نحاول كل درس أن نحضر آية كوبية على اسم من أسماء الله الحسنى فلعل الله سبحانه وتعالى يقربنا إليه ، لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء :

ابن آدم اطلبني تجذني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء
، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وأرج حكم عقلاً أشدهم الله حباً .

سیدنا رسول - اللهم صل علیه - حينما كان طفلاً صغيراً دعاه أصدقاؤه للعب ، فقال
كلمة كلما ذكرتها يشعر بدني : لم أخلق لهذا .

هو ونحن لم نخلق للعب ، لم نخلق للمتعة الرخيصة ، لم نخلق لتمضية الوقت
تمضية عابثة ، لم نخلق لأكل مال بعضنا بعضاً ، لم نخلق للمتعة :

عن معاذ بن جبل أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ بَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ :
إِيَّاكَ وَالْتَّنَعُّمُ ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ . خلقنا في حياة محدودة فيها مسؤوليات كبيرة ،
وسوف يعقبها حياة أبدية إما قمة في السعادة وإما في حضيض النار .

عن عبد الله بن عباس سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبةٍ
أيها الناس إنَّ لكم معايير فانتهوا إلى معاييركم وإنَّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم إنَّ المؤمنَ بين
مخالفينٍ وبين أجيالٍ قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ فيه وبين أجيالٍ قد يقى لا يدرى ما الله قاضٍ
فيه فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الهرم ومن الحياة قبل الموتِ
فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ما بعدَ الموتِ من مُستعٽِ

ما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار

أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي وفيه انقطاع

لا يوجد حالة ثالثة ، والموت وشيك ، لا يدرى أحدها متى أجله ، أي ثوانٍ يصبح
في عداد الموتى ، الموت وشيك : والسعيد من اتعظ بغيره . والشقي من اتعظ بنفسه
والحمد لله رب العالمين

